مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 42- العدد 1 (2026):223-234

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 42-No.1 (2026):223-234

مشهد البرق ودلالاته في شعر المغمورين من العصر الغرناطي

ميادة محمد عويص[1*]، سراب سليم يازجي[2]

1-طالبة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة دمشق.

*-mayada4.awais@damascusuniversity.edu.sy

2-أستاذة الأدب الأندلسي، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة دمشق.

الملخص:

يقوم البحث على بيان المشاهد المختلفة للبرق في شعر المغمورين من العصر الغرناطي، وهو يتمثل في دراسة البرق من جانبين؛ الجانب الأول (العناصر المكونة لمشهد البرق) ويعني التعامل مع البرق استنادًا إلى كونه حقيقة، وما يتضمنه ذلك من عناصره الواضحة من بريق وضوء وسرعة وحرارة وما سوى ذلك، أما الجانب الثاني (فنية مشهد البرق) فهو يقوم على الأشياء التي تجتلَب عناصر البرق من أجلها في صور التشبيه والاستعارة والكناية، كالثغر والكف والوعد الكاذب والوجه، وكل ذلك مشفوع بالشواهد الشعرية، مبينًا الجانب الذي يقصده الشاعر في البرق، ويستند البحث إلى المنهج الوصفي والتحليلي في تعامله مع هذه الظاهرة، راصدًا أهم شواهده، ومحللًا إياها.

الكلمات المفتاحية: البرق، اللمعان، شعراء غرناطة المغمورون، التشبيه.

تاريخ الإيداع: 2025/02/06
تاريخ القبول: 2025/05/04

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

The lightning scene and its connotations in the poetry of the obscure from the Granada era

Mayada Mohammed Awais[1*], Sarab salim Yazigi[2]
1-PhD Student, Department of Arabic Language, University of Damascus.
*-mayada4.awais@damascusuniversity.edu.sy
2-Professor of Andalusian Literature, Department of Arabic Language, University of Damascus.

Abstract:
The research is based on explaining the different scenes of lightning in the poetry of the obscure from the Granada era, and it is represented in studying lightning from two aspects. The first aspect is dealing with lightning based on it being a reality, and what it includes of its clear elements of brilliance, light, speed, heat and other than that, and employing it in the service of the idea. As for the second aspect, it is based on the things for which the elements of lightning are brought in the images of simile, metaphor and noun metonymy, such as the mouth, the hand, the false promise and the face, and all of that is accompanied by poetic evidence, indicating the aspect that the poet intends in lightning.

Keywords: Lightning, Brilliance, Obscure Poets of Granada, Simile.

Received: 06/02/2025
Accepted: 04/05/2025

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

المقدمة:

لا يختلف اثنان في أن الطبيعة من المصادر الرئيسة للشاعر في معانيه وصوره، مستلهمًا منها ما يرضي توقه إلى ما يبعث في نفس المتلقي الشعور الأشد تجاه حزنه أو فرحه أو ما سوى ذلك من أحوال يمر بها، ويستخدم الشعرَ ممرًّا للتعبير عما هو فيه، وإشراك المتلقي في ذلك، ثم لا يكتفي بهذا بل يجد فيما يحيط به وبالمتلقي معينًا ومعتَمَدًا يتكئ عليه في إيقاظ الشعور ذاته، فترى البيئة التي تحفُّ بهما حاضرةً في كل بيت وفكرة ومعنى، ممثلةً صلة وصل بين المرسل والمرسل إليه، أو قد تكون كالقاسم المشترك الذي يجمعهما، فيلتقيان فيه.

ومن بين عناصر الطبيعة التي تجمع المبدع بالمتلقي ظاهرة البرق، هذه الظاهرة التي كان حضورها لافتًا في الشعر العربي عمومًا فلا يكاد يخلو شاعر من فكرة استعمال البرق في شعره، رسولًا يبلغ التحايا، أو مشبهًا به للمعان والبريق لثغر المحبوبة، أو لجبهة الممدوح، أو للمعان السيف، أو قد يكون ذكره على سبيل الحقيقة للاستنجاد به لسقيا أراضي المحبوبة، أو قبر المرثي، أو لاستنزال العقاب بمن يراه الشاعر مذنبًا في حقه أو حق من يخصه.

على أن هذه الكثرة في الشعر لم يظهر أثرها في الدراسات الأكاديمية التي تهتم به بوصفه عنصرًا حاضرًا دومًا فيه، فلم يعثر البحث – في حدود استقصائه الأبحاث رسائل كانت أو أطاريح أو مقالات – على شيء ذي بال فصل الحديث في البرق، وحتى الكتب القديمة التي درست هذه الظاهرة عوَّلَت على الأحاديث النبوية في الاستشهاد لهذه الظاهرة، مفصلين الحديث في أنواعه وتسمياته استنادًا إلى شكله وسرعته وزمن ظهوره، والهيئة التي بدا عليها، وهو ما أفقر البحث هذا بالمصادر والمراجع التي تغنيه، فكان الاعتماد على أشعار هؤلاء لاستكشاف سبل استعمالهم إياه، وتوظيفهم له في شعرهم، والخروج من هذا بتقسيم يشمل كل ذلك.

وبدا أن المنهج الأنسب للبحث متوقفًا على طبيعة تفاصيله، فتتبُّع الظاهرة في شعر المغمورين يقوم على الوصف، وبيان حدود الظاهرة، لينتقل بعد ذلك إلى تحليل الشواهد التي وقف عليها البحث، وبيان جمالياتها ومدى تأثيرها في الغرض الذي سيقت لأجله.

والبرق كما يرد في المعاجم وفي كتب الحديث النبوي: سَوط مِنْ نُورٍ يَزجَرُ بِهِ الملَكُ السَّحَاب (المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها: 233/1؛ والدعاء: 305/1. ويُنسَب لعلي بن أبي طالب)، وفي الطبيعة والواقع المشاهد: وَاحِدُ بُروق السَّحَابِ، الَّذِي يَلمع فِي الْغَيْمِ، وَجَمْعُهُ بُروق، وبرَقت السَّمَاءُ تَبْرُق بَرْقاً وأَبْرَقتْ: جاءَت بِبَرق. والبُرْقةُ: المِقْدار مِنَ البَرْق، وَقُرِئَ: ﴿يَكَادُ سنَا بُرَقِه﴾ [النور: 43]، فَهَذَا لَا مَحَالَةَ جَمْعُ بُرْقة، وَمَرَّتْ بِنَا الليلةَ سَحَابَةٌ بَرَّاقَةٌ وبارقةٌ أَي سَحَابَةٌ ذَاتُ بَرْق؛ وأَبْرَق الْقَوْمُ: دَخَلُوا فِي البَرْق، وأَبرقُوا البرْقَ: رأَوْه؛ قَالَ طُفَيْل:

ظَعَائِنُ أَبْرَقْنَ الخَرِيفَ وشِمْنَه، ... وخِفْنَ الهُمامَ أَن تُقاد قَنَابِلُهْ

وَيُقَالُ: أَبرقَ الرَّجُلُ إِذَا أَمَّ البرقَ أَي قصَده؛ والبارِقُ: سَحَابٌ ذُو بَرْق؛ وَالسَّحَابَةُ بارقةٌ، وسحابةٌ بَارِقَةٌ: ذَاتُ بَرق، وَيُقَالُ: مَا فَعَلَتِ الْبَارِقَةُ الَّتِي رأَيتَها الْبَارِحَةَ؟ يَعْنِي السَّحَابَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا بَرق (ينظر: اللسان والتاج: مادة (برق).

وتتفق المعاجم على أن للبرق تفسيرًا دينيًّا هو أنه مخاريق بأيدي الملائكة تسوق بها السحاب، وما أشبه ذلك من هذه التفسيرات، ثم تعود لتبين أن المتداول فيما يخصه أنه لمعان يظهر وسط السحاب، غالبًا ما يسبق المطر، فكان نذيرًا بالخير في معظم الأحيان، ولا سيما فيما يخص الشاعر القديم، فإذا ما توبع في أشعار المغمورين من العصر الغرناطي – محور البحث – وجدنا له استعمالات مختلفة، ودلالات عدة، تتوزع بين المعنى الحقيقي للبرق وما يتفرع عن ذلك من معان كثيرة، أو أن يكون البرق مخاطَبًا مشخَّصًا، يكون رسولًا للشاعر إلى من يبلغه سلامه، وغير ذلك مما سيمر في أشعارهم.

والمغمورون من شعراء العصر الغرناطي مَن لم يكن لهم حظ أولئك الذين ذاعت أشعارهم وانتشرت، إما لقلة جودةٍ رآها نُقَّاد ذلك العصر ومتابعو الشعر فيها، أو لقلة في هذا الشعر على جودته وأصالته، وربما تهيأ للشاعر كلاهما فيفوته الحظ والتوفيق في أن يصادف مَن يتبناه ويُحظيه، فكان أن صُنِّفَ هؤلاء ضمن المغمورين من شعراء هذا العصر، وسنحاول في هذه الصفحات القليلة أن نقف على ما ذكروه من أمر البرق.

وتحسن الإشارة إلى أن دراسات النقاد أو الباحثين للبرق قليلة لا تكاد تُذكَر، والبرق في الكتب القديمة وكتب التراث لا يُذكَر إلا لِمامًا، وفي أثناء الحديث عن المطر والسحاب، ومنها كتاب المطر والرعد والبرق والريح لابن ابي الدنيا، وكتاب المطر لأبي زيد الأنصاري، وكتاب وصف المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع، لذا اتُّكِئَ في هذا البحث على شعر المغمورين من العصر الغرناطي للوقوف على مفاصل رئيسة تكون فكرة عن استعانتهم به في أشعارهم.

وبالنظر إلى الأبيات التي تتحدث عن البرق في أشعار المغمورين من عصر غرناطة قسِّمَت أشعارهم اعتمادًا على عناصره إلى قسمين رئيسين، الأول في البرق وعناصره الأساسية، من حرارة وضوء ومفاجأة وسواها، وكيف استثمرها الشعراء، وعنوانه (العناصر المكونة لمشهد البرق)، والثاني الاستعانة بالبرق في جليه مشبهًا به أو مستعارًا أو مكنًّى به عن أمور مختلفة بينها وبين البرق رابط ما، وعنوانه (فنية مشهد البرق).

القسم الأول: العناصر المكونة لمشهد البرق:

ويُعنى بعناصر البرق التي يتكون منها، أو صفاته الطبيعية، اللمعان، والسرعة، والإضاءة، والحرارة، والاستمرارية، فجاءت كما يأتي:

1- حرارة البرق:

وهذا الجانب من البرق كان معهودًا عند الشعراء الذين يبثون شوقهم وتوقهم إلى لقاء المحبوب، أو ما يعانونه عند الفراق، من حرارة الوجد ونار البعد، فترى البرق خير معبر عن هذا، أو أن سناه يشبه سنا الكبد التي تضطرم نارها، ومن هذا قول الشاعر ابن مشتمل الأسلمي في وصف إحدى الرياض(الإحاطة: 247/2):

يُهَيِّجُ أَنْفَاسِي غَرَامًا نَسِيْمُها وَتَقْدَحُ نَارَ الشَّوقِ عِنْدِي بُرُوقُها

فهذه الحديقة الغناء تبعث في أنفاس الشاعر اضطرابًا لما يجد من ريحها الطيبة، ثم لما رأى هذا البرق فيها أورى سناه وحرارته شوقَه، وأضرمه في صدره، فكان البرق هنا مؤثرًا من حيث حرارته التي يجد الشاعر شبيهها في صدره شوقًا إلى هذا المكان، ولا سيما أن الشاعر استعان بالبيان لتمكين الصورة في خيال المتلقي، ففي قوله (نار الشوق) صورة بيانية، شبه فيها الشاعر الشوق بالنار، وهو ما يشير إلى طبيعة البرق الحارقة، فخرج من ذلك إلى أن الأثر واحد، والطبيعة واحدة، بين الشوق وأثر البرق؛ ومثل هذا الأثر من حيث الحرارة التي تنبعث منه قول ابن عيسى الحميري(الكتيبة الكامنة: 158):

إِذَا البَرْقُ أَوْرَى فِي الظَّلَامِ زِنَادَهُ فَلِلْوَجْدِ فِي زِنْدِ الصَّبَابَةِ قَادِحُ

وابن عيسى يعلم ما يصنع البرق في الظلام من ضياء، وأضاف إليه الحرارة المنبعثة منه استنادًا إلى الشطر الثاني، بل لعله لم يقصد سوى الحرارة في هذا المقام؛ إذ الشطر الثاني من البيت فيه تبليغ أن الوجد والصبابة قد أضرما في قلب الشاعر نار الشوق، كما أن البرق يشعل بإيماضه النار في هذا الليل البهيم، ولو أن المقصود الضوء واللمعان فقط لما كان فيه شيء؛ إذ ما فائدة الشوق إذا كان لمعانًا يستمر لحظة ثم ينتهي؟

وهذا ما يمكن أن ينطبق على قول الشاعر ابن الحسن البناهي في وصف شجوه وغرامه (مظهر النور: 76):

وَالْقَلْــبُ ضَــاعَفَ شَــجْوَهُ وَغَرَامَــهُ عِنْــدَ الوُقُــوفِ بِهِــنَّ بَــرْقٌ يَلْمَــعُ

إذ كيف يمكن أن يكون المقصود من الإتيان بالبرق الإشارة إلى هذا اللمعان الذي لا يدوم سوى ثواني معدودة في أحسن الأحوال، وهو ما لا يناسب مقام العشق، وعذاباته التي لا تنتهي، ولكنها الحرارة المنبعثة منه، التي تؤجج نار الشوق وتزيد منها، فيكون البرق معينًا للشاعر في ذلك، ولنقل يزيد في عذاباته.

2- الاستدامة:

والمقصود بهذا أن البرق دائم الخفقان حال المطر، أو حال إنذاره به، أو أنَّ الشاعر حين ذكره قصد البرق في حاله هذه، حال استدامته، وهو ليس دائم الخفقان، ففي بعض أحواله لا يدوم ما دام المطر، ينذر به ويتوقف، وقد لا ينذر به أيضًا، لكن الشاعر استعان بحال البرق هذه ليشير إلى أحواله التي يمر بها، ومن هذا قول الشاعر ابن الخطيب السلماني(نفح الطيب: 292/7):

فَـدَامَ لَنَـا مَـا سَـرَى فِـي الرِّيَـاضِ نَسِــيْمُ الصَّــبَا وَمَهَــبُّ القَبُــولِ

وَحَــنَّ مَشُــوقٌ لِأَرْضِ الحِجــازِ إِذَا لَاحَ إِيْمَــاضُ بَــرْقٍ كَلِيــلِ

فحديث الشاعر هنا هو عن استدامة ما يجد من الممدوح، فربط هذه الاستدامة بأمرين، أولهما هبوب النسيم على الرياض، وما في هذه النسائم من أثر واضح فيها، والثاني حنين الواجِد لأرض الحجاز وما كان فيها من ملاعب الشباب وملاهي الفتوة إذا ظهر لمعان البرق، وهو يقصد استدامة هذا اللمعان والوميض، وارتباطه بالمطر، وأنه لا يكف ما دامت السماء تأتي بالمطر، وفي كل هذا دعاء بأن لا تقف يدا الممدوح عن المواهب والعطايا.

ولتأكيد هذا نجد لابن الخطيب السلماني بيتًا في المعنى نفسه يقول فيه(نفح الطيب: 295/7):

فَدَامَ لَنَـا مَـا هَـبَّ عَـرْفٌ مِـنَ الصَّـبَا وَأَوْمَــضَ بَــرْقٌ فِــي الظَّــلَامِ كَلِيْــلُ

فهو يدعو بما دعا به في البيتين السابقين، ويربط استدامته بأمرين أيضًا، أولهما هو النسيم العليل نفسه، الذي يحمل عبق الرياض المونقة النضرة، والثاني هو إيماض البرق الذي لا يهدأ، فمقصد الشاعر في هذا البيت أيضًا هو الاستدامة في البرق لا غير، والمعوَّل عليه في هذا البيت هو الكناية، فهبوب النسيم وإيماض البرق إنما يزول بزوال الحياة وانتهائها، ففي ربط الأمر بهما كناية عن الأبدية.

3- اللمعان:

وليس في شعرهم سوى شاهد واحد عليه في هذه الغاية، أي قَصْدُ الشاعرِ اللمعان في البرق لا غير، وتكون الغاية وضوحَ الأمر وبيانه وعدم التباسه، فهو ظاهر ظهور البرق يلمع في الظلام، وشاهده قول أبي إسحاق الساحلي(أعلام المغرب والأندلس: 205):

أَيُجْهَــلُ بِالسُّــحْبِ بَــرْقٌ تَجَلَّــى وَيُنْظَــرُ بِاللَّيْــلِ نَجْــمٌ أَنَــارَا

فالأمر الذي يريد الشاعر بيانه واضح لا يخفى على ذي بصر، كما أن البرق اللامع لا يُجهَلُ في السحب، فكيف لك أن تدَّعيَ عدمَ رؤيته، وكذا بحثُك ليلًا عن النجم المنير للسماء، فالمقصد من المجيء بالبرق هنا هو لمعانه لا غير، وقد جيء به لبيان عدم القدرة على تجاهل الحقيقة الظاهرة الواضحة.

وقد يأتي الشاعر بالأمرين معًا، وهم الاستدامة واللمعان سويًّا، كما في قول ابن حسان الغافقي(الدرر الكامنة: 485/5):

بَــرْقٌ أَضَــاءَ بِحَــاجِرٍ مَــا يَهْــدَأُ وَسَــنَاهُ فِــي جُــنْحِ الــدُّجَى يَــتَلَأْلَأُ

فالشطر الاول من البيت دليل استدامة البرق، أو أن المقصد منه والغاية الحديث عن استدامة البرق، على الأقل في ذهن الشاعر حين يكون مستمرًّا طيلة نزول المطر، في حين يقصد من الشطر الثاني الحديث عن اللمعان، فضوءه ظاهر واضح، ولا سيما حين قرن هذا اللمعان بأنه في جنح الدجى، وهو يقصد الظلام الشديد، الذي لا تكاد تميز فيه شيئًا، فلك أن تتخيل وضوحه حينها، فالغايتان المقصودتان من اللمعان والاستدامة ظهرتا في هذا البيت مقسمتين على شطريه.

4- الحركة:

وغالبًا ما تقترن الحركة بوصف الخفقان في البرق، ولعلَّ المتابع للبرق في حركته وانتشاره عبر السماء يمكنه لَحْظُ التشابه بين هيئته، وهيئة الخفقان في القلب التي تُسمَعُ كأنها حركتان متتابعتان، ويتبيَّن ذلك من صوت القلب، ويُتأكَّدُ منها لمَن رأى ذلك في الأجهزة الحديثة، وهذا دليل عبقرية الشاعر آنذاك، أو أن العلم وصل بهم إلى معرفة هذه الحركة المتتابعة له، فقال في ذلك ابن عيسى الحميري(الكتيبة الكامنة: 158):

فَقَلْبِـــيَ لِلْبَـــرْقِ الخَفُـــوقِ مُسَـــاعِدٌ وَوَجْـــدِيَ لِلْـــوُرْقِ الثَّكَـــالَى مُطَـــارِحُ

فالخفقان صفة للبرق كما هو صفة للقلب، أوهي مقرونة بالقلب، وربما أخِذَت صفة الخفقان من أحدهما للآخر، والحركة هنا مقصودة لربط وجود البرق بخفقان قلب الشاعر، أي أن رؤية الشاعر للبرق تؤثر في قلبه فيزيد خفقانًا واضطرابًا، حتى توهَّمَ أن خفقان قلبه يعين البرق على حركته المشبهة لخفقان القلب، كما أن حزنه يتجاذبه مع الحمائم الثكلى التي تندب إلفها، ومن هذا الوصف بالحركة للبرق قول ابن الخطيب السلماني(نفح الطيب: 290/7):

مَعَاهِـــدُ مَـــرَّتْ عَلَيْهَـــا السَّـــحَابُ بِبَـــرْقٍ خَفُـــوقٍ وَدَمْـــعٍ هَمُـــولِ

وهو يصف هذه الأرض التي عهد بها ذكرياته، فقد مرت بها السحائب برقًا ومطرًا، فلما وصف البرق وصفه بالخفقان، وهي الصفة التي تشير إلى الحركة التي يظهر عليها البرق مشابهة لخفقان القلب، أما الدمع الهمول فهو المطر الغزير، ويبدو أن هذه الأرض مما كان مستويًا ممتدًّا، وذلك أشد ظهورًا للبرق، وإيضاحًا لحركته المضطربة، ممتدًّا من السماء إلى الأرض.

5- التذكير:

ويُرى هنا أن الشاعر يحركه البرق لحال ما، استنادًا إلى صفة فيه، وهذا الأمر شائع في الشعر القديم عمومًا، وهو جار في أشعار المغمورين من العصر الغرناطي، وفي أشعارهم ثلاثة شواهد على ذلك، أولها قول ابن عيسى الحميري(الإحاطة: 258/2):

أَلِلْبَـــــرْقِ يَبْـــــدُو تَسْـــــتَطِيْرُ الجَـــــوَانِحُ وَلِلْـــوُرْقِ تَشْـــدُو وتَسْـــتَهِلُّ السَّـــوَافِحُ

وهو يتساءل عن خفقان قلبه العجل الذي لا يهدأ، وارتجافة أركانه واضطرابها، إن كان سببها ظهور البرق، فكأن البرق كان مذكرًا للشاعر بحاله، وكذا فيما يخص المتلقي، فهو أيضًا قد علم حال الشاعر اعتمادًا على البرق وصفته، فعمل البرق هنا عمل المذكِّر للشاعر، وهذه الذكرى ربما تداعت بسبب البرق لأنه واكب حادثًا ما، فكان كلما ظهر ذكره به؛ والبرق نفسه هو ما أذكى في قلب الشاعر نار شوقه حين قال(الإحاطة: 297/2):

يَخُـــطُّ وَمِـــيْضُ البَـــرْقِ لِـــي مِنْـــهُ أَسْـــطُرًا عَلَـــى صَـــفْحَةِ الظَّلْمَـــاءِ فَهِـــيَ لَـــوَائِحُ

فقد انعكس ضوء البرق في طيات الظلام الدامس، فظهر واضحًا وسطه، فهو يثير في قلب الشاعر ما يماثله من رؤية المحبوب، فكأن البرق ضياء وجه المحبوب، والظلام الدامس شعره الأسود، وما يخطه البرق وسط الظلام هو ما يلوح للشاعر من ذكريات وجه المحبوبة، وخُيِّل للشاعر أن هذا البرق قد تعاهده بإيقاظ هذه الذكرى.

ويذكر البرق الشاعر بديار الأحبة، حين كان يراه لامعًا هناك، فيعاينه، فكان لمعانه في أي بقعة مذكِّرًا للشاعر بمكانه الأول، فقال في ذلك أبو إسحاق الساحلي(الكتيبة الكامنة: 235):

وَلِـــيْ كَبِـــدٌ مَهْمَـــا رَأَى البَـــرْقَ وَهْنَـــةً تَـــنَفَّسَ مِـــنْ أَحْشَـــائِهِ وَتَكَلَّمَـــا

فكبده التي ترى البرق في الليل تضطرم فيها النيران شوقًا وتوقًا إلى الأحبة، حتى تكاد لفرط ما يصيبها تتكلم وتشكو ما بها، فكان البرق مما ينبه الشاعر على ما مر به سابقًا، بل هي ذكرى مؤلمة، ولا سيما أن الكبد هي ما يتأثر بها، وخصَّها بالتأثر لما لها من الخفاء في الجسد، فضلاً عن كونها أحد أعضائه التي يموت بفقدانها، فقد تكون عوضًا عن القلب.

6- الامتداد:

وهنا يمكن القول إن المقصود بامتداده أن يكون وسيطًا لإيصال ما يريد الشاعر إيصاله، من دعاء أو غيره، فالامتداد والاتساع الأفقي للبرق، وتمكن معظم الناس من رؤيته في نطاق المنطقة التي هو فيها جعل الشعراء يتوسلون به لإيصال مشاعرهم وأقوالهم، وفي أشعار المغمورين شاهدان على هذا، أولهما قول ابن الحكيم اللخمي(نفح الطيب: 622/2):

يَـــا بَـــرْقُ خُـــذْ دَمْعِـــي وَعَـــرِّجْ بِـــاللِّوَى فاسْـــفَحْهُ فـــي بَانَاتِـــه وَعَـــرَارِهِ

وهو يخاطب البرق كي يكون رسوله إلى اللوى، حيث الأحبة ومَن يشتاقهم الشاعر، فيذرف من أجل ذلك دموعه غزيرة عليهم، ويكون البرق رسوله الحامل لهذه الدموع فيسكبها هناك حيث هم مستقرون، وحيث غادرهم، ولا شك أن الشاعر استعار المطر لدموعه تعبيرًا عن غزارة ما يذرفه، في إشارة إلى ما يقاسيه ببعدهم.

وثاني هذين الشاهدين قول ابن قطبة الهرميسي(الكتيبة الكامنة: 289):

يَـا وَمِـيْضَ البَـرْقِ إِنْ جِئْـتَ الحِمَـى وَأَسَـــلْتَ الغَيْـــثَ فِـــي رَسْـــمِ الطَّلَـــلْ
سَـــلْ أُهَيْـــلَ الجَـــزْعِ عَـــنْ جِيْرَتِنَـــا وَعَـــنِ المُضْـــنَى المُعَنَّـــى لَا تَسَـــلْ

وفيه تعويل من الشاعر على هذا الامتداد الواسع للبرق الذي يمثل خير رسول يبلغ رسالاته، فهو ينشده إن جاء ربوع أحبته، فتبعه الغيث منسكبًا في أرجائها، أن يسأل عن أهلها أين ارتحلوا وأين مضوا، فهو المجهول للشاعر وللبرق أيضًا، أما المعروف الذي لا يحتاج إلى إيضاح وبيان فهو المكلوم الموجوع الذي يعاني فراق الأحبة، وهو يقصد نفسه.

القسم الثاني: فنيَّة مشهد البرق:

ويقوم هذا القسم على تفريعه استنادًا إلى الشيء المجلوب من أجله البرق في صورة بيانية ما، من تشبيه واستعارة وكناية، لذا تتعدد الأشياء وتتنوع دون استناد إلى صفات البرق وعناصره كما كان الأمر في القسم الأول، فيستعمل الشاعر الغرناطي المغمور البرق مشبهًا به أو مستعارًا أو مكنًّى به لما يريد، بجامع هو صفة من الصفات السابقة، فإما ان يأتي به في الصورة البيانية التقليدية، أو فيما هو فرع عليها أو جزء منها، وفيما يلي بيان ذلك مقسمًا وفق الشيء الذي جُلِبَ من أجله البرق:

1- الثَّغر:

وغالبًا ما يوصف الثَّغر بالبريق واللمعان، سواء في ذلك الأسنان والعوارض، وحتى الشّفاه التي يُحمَد منها لمعانها وإن لم يكن في غير بياض، ولا يخلو ما قاله شعراء غرناطة المغمورون من هذي الصور البيانية، كقول ابن الشريف السبتي(الكتيبة الكامنة: 302):

تَبَسَّـــمَتْ فَجَـــلَا الظَّلْمَـــاءَ مَبْسَـــمُها كَمَـــا تَـــأَلَّقَ بَـــرْقٌ فِـــي نَوَاحِيْهَـــا

وهو تشبيه تقليدي، فبياض ثغر هذه المحبوبة وانعكاسه في جنبات الظلام الدامس يشبه لمعان البرق وإنارته النواحي المظلمة في السماء، وهو توظيف يبين مدى ارتباط دلالة البرق بنفسية الشاعر، وطريقة استثماره، فقد مرَّ أنه مما يحرك المواجع ويقلبها، في حين يبدو هنا مذكرًا بما يجلب السعادة والفرح إلى قلب الشاعر.

ومن هذا النمط قول أبي إسحاق الساحلي(نفح الطيب: 657/2):

أُقَبِّـــلُ مِنْـــهُ لِلْبُـــرُوقِ مَبَاسِـــمًا وَأَرْشُـفُ مِـنْ بَهْمَـاءِ ظَلْمَائِـهِ لَمَـى

فشبه مبسمه وثغره بالبرق في بريقه وبياضه ولمعانه وما سوى ذلك من الصفات التي تُطلَب في الثغر، كما أن مطلب السواد في الشفاه مطلوب، وهو ملتَمَس في ظلمة الليل، فجعل من الشفاه ليلًا بهيمًا مظلمًا، يجلو ظلمتها تلألؤ الأسنان تحتها، وهو البرق الذي يبدو كلما انحسرت الشفاه مبيِّنةً إياه.

2- الكف:

وهو تشبيه قديم مضى في شعر امرئ القيس بوصفه أشهر بيت في بابه، حين شبه البرق بلمع اليدين (ديوانه: 24)، وهو ما تكرر عند المحاربي أحد شعراء غرناطة المغمورين في قوله(الإحاطة: 434/3):

أَوْ لَامِـــعِ البَـــرْقِ إِذْ تَحْكِـــي إِنَارَتُـــهُ كَفًّـــا خَضِـــيْبًا مُشـــيرًا بِالَّـــذِي عَـــدَلا

إذ لا يختلف معنى البيت عما ذكره امرؤ القيس من مشابهة البرق للكف، والأصل العكس، لكن الشاعر يأتي به للمبالغة في وصف الكف بالبياض واللمعان والتلألؤ، وهو ما قصده الشاعر هنا لا حركة اليد، ولا سيما أن المقام هنا مقام مدح، قاصدًا صفة العدل، فالحق الذي يقول به الممدوح بيده آمرًا أو ناهيًا إنما هو واضح جلي لا اعتراض عليه، كما هو وضوح البرق.

3- الوعد الكاذب:

والشاعر الغرناطي يرى هذا الضوء سريع الظهور والمرور، ثم يختفي كأن لم يكن، فلا يذكره إلا بالوعد المخلَف والعهد غير الموثوق من الدنيا، كقول محمد العربي(نفح الطيب: 548/4):

هَيْهَـــاتَ هَيْهَـــاتَ أَمَـــانٍ لَهَـــا خُلَّـــبُ بَـــرْقٍ لَـــكَ خَـــلَّابُ

فكيف للإنسان العاقل أن يأمن الدنيا وأهوالها، وكيف له أن يقع في قلبه أنه قد تفي وتصدق وتمد الأمل إلى ما لا نهاية، فما الهبة التي تعطيها إلا كمرور هذا البرق، لا يدوم ولا يستمر، وإنما هو وعد كاذب بالهناء والنعيم، وإنما يقصد الشاعر أن ليس كل برق مؤذنًا بالمطر، فابتسام الدنيا وتهيئتها أسباب العيش الرغيد للا يعني أن ذلك أبدي غير زائل، كاغترار المرء بالبرق حين يظنه جالبًا للمطر دون شك.

4- العزيمة:

فاتخذ شعراء غرناطة المغمورون من البرق أداة ليبينوا أن العزيمة الجادة، وإمضاء الأمر بسرعة وحزم، كمرور البرق لا يوقفه شيء ولا يمنع حدوثه مانع، وشاهده قول ابن قطبة الدوسي(الكتيبة الكامنة: 273):

يُمْضِـــي العَزِيْمَـــةَ وَهِـــيَ بَـــرْقٌ خَـــاطِفٌ فَيَـــدُقُّ أَعْنَاقًـــا وَيَقْصِـــمُ أَظْهُـــرَا

فالممدوح يمضي ما يهم به كمرور البرق في سرعة وشدة وتقحُّم، فتراه ينال من أعدائه بقطع الرؤوس وكسر الأظهر، وهو يشير إلى شدة بأسه وعدم خوفه وجرأته على عدوه استنادًا إلى المشبه به البرق، وخاصة أن للبرق آثارًا مخيفة حين يضرب الأرض، فيجعل ما يقع تحته رمادًا كأن لم يكن.

ومثله في إمضاء الأمر قول ابن الخطيب السلماني(نفح الطيب: 295/7):

أُوَجِّـــــهُ إِنْ رَقَـــــدْتُ إِلَيْـــــكَ طَيْفِـــــي كَلَمْـــــعِ البَـــــرْقِ يَخْتَـــــرِقُ السَّـــــحَابَا

يأبى الشوق الذي يجتاح الشاعر إلا أن يتواصل مع المحبوبة، فإن لم يكن هناك طريق إلى اللقاء الحقيقي، فلا بد من لقاء في الخيال، إذ يرسل الشاعر طيفه زائرًا مطمئنًا، يطفئ بعض نار شوقه، ممثلًا هذه الرغبة الجارفة بالبرق الذي لا يحجبه حاجب عن بلوغ أقصى أَمْدِيَته.

5- نوائب الدهر:

والأمر هنا ليس مختلفًا كثيرًا عما سبق، فالسرعة والشدة والإمضاء للأمر يمكن أن تكون جامعًا بين النوائب والبرق، وبين إمضاء الأمور والبرق أيضًا، كما في قول ابن شلبطور(الإحاطة: 243/2):

ومُـذْ أرَانِيْـه زَمَـانِي لَـمْ أُبَـلْ مِـنْ صَـرْفِه مِـنْ مُرْعِـدٍ أوْ مُبْـرِقِ

فالشاعر على حد وصفه لم يواجه من الخطوب والمصائب منذ التقى الممدوح مرعِدًا أو مبرِقًا، وتسميته هذا الذي يواجهه بالمرعد أو المبرق دلالة على المصائب التي تقع عليه، وإلا لما ربط عدم وجودها بلقائه الممدوح، فالمستفاد أنه قصد بالمبرق هنا خطوب الدهر ونوائبه، ويعول الشاعر في هذه الصورة على ما للبرق والرعد من آثار مدمرة، فهو يختار من آثارهما ما هو مؤذن بالضرر.

6- الوجه:

ويشترك الوجه مع الثغر في أن الجامع بينهما وبين البرق يتمثل في الإشراق والضياء واللون الأبيض البراق، وشاهده قول أبي إسحاق الساحلي(أعلام المغرب والأندلس: 205):

وَبَـــرَقٍ تَـــأَلَّقَ فـــي وَجهِـــهِ وَقَـــد قَطَّـــبَ السُّـــحبُ وَجْهًـــا مُعَـــارَا

فرأى التألق في وجهه تألُّقَ البرقِ وضياءَه، وذكر البرق بما له من مزيات وخصائص تزيد في تصور المتلقي ما في الوجه من ضياء ونور، وزاد تأكيدَ هذا حين رأى البرق متألقًا فيه، فلم يكتف بتصريحه بالبرق شاخصًا.

7- الإنسان:

وقد ظهر هذا في بضعة أبيات لابن الحسن البناهي حين شبه البرق في أحواله المختلفة بأحوال الشاعر المختلفة مع أحبته، فيما يشبه القصة الشعرية؛ إذ يتوافر فيها من العناصر الفنية الأساسية ما للقصة النثرية من حوادث وشخوص في بناء يقوم على السرد ضمن زمان ومكان محددين(المشهد المكاني في ديوان لسان الدين بن الخطيب: 313)، فقال(مظهر النور: 76):

يـــا بَـــرْقُ زُرْتَ مَعِـــي دِيَـــارَ أَحِبَّتِـــي فَحَكَيْتَنِـــي وصـــنعتَ مَـــا أَنَـــا أَصْـــنَعُ

أَشْـــبَهْتَ قَلْبِـــي خَافِقًـــا مُتَوقِّـــدًا لَا يَسْـــتَقِرُّ جَـــوًى عَلَيْـــهِ الأَضْـــلُعُ

تَمْضِـــي وَتَرْجِـــعُ عِنْـــدَهَا مُتَـــرَدِّدًا وَكَـــذَاكَ إِذْ أَمْضِـــي أَحِـــنُّ فَـــأَرْجِعُ

وَلَقَـــدْ بَكَيْـــتَ كمـــا بَكَيْـــتُ بمُغْـــدِقٍ سَـــحٍّ سَـــحَائِبُ وَدْقِـــهِ لا تُقْلِـــعُ

وَوَصَـــلْتُ سُـــهْدِيَ فـــي دُجُنَّـــةِ بَيْـــنِهِمْ وَقطعـــتَ لَيْلَـــكَ سَـــاهِرًا لا تَهْجَـــعُ

فها هو يخاطب البرقَ وقد زار معه ديار الأحبة، فأشبهَ الشاعر فيما فعلَ، فكان خفقان البرقِ مشبهًا لخفقان قلب الشاعر، لا تراه يهدأ أو يسكن، مضطربًا هائجًا لشدَّة ما يجد من فراق أحبته، ثم ينتقل إلى حال التردد التي يكابدها الشاعر، فهو لا يكاد يستقر في

قرار الهجر والبعد حتى ترى المحنة والشوق واللهفة تعيده إلى محبتهم، ثم يشتد بأسه قليلًا فيهجرهم، فلا ينفك بين الحالين قابعًا لا يستقر، وهو حال البرق في ظهوره وغيابه، ثم جعل الشاعر المطر الذي ينذر به البرق دموعًا له، فتشبه بذلك دموع الشاعر التي بكاها في ديار الأحبة، لينتهي إلى أن البرق وسط هذا الظلام الدامس متنبهًا متيقظًا ما هو إلا الشاعر ساهرًا لا يهجع أو يرقد لنوم؛ ولا يخفى أن للشاعر براعةً في حسن انتقاء عناصر الصورة وتركيبها المعنوي وإمكانية مخاطبة خيال المتلقي وإثارة ارتباطات ذهنية متباعدة (خطب ابن نباتة الفارقي: البنية التصويرية والإيقاعية: 44).

الخاتمة:

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ استغلال البرق في خدمة الأغراض المختلفة للشّعراء لم يكن ذا شأن كبير في أشعارهم، وإنّما كان امتداده أفقيًّا في هذا الشّعر، فلا يكاد يخلو مجموع قصائد أحدهم من شاهد واحد على الأقل، وكأنه ينسج على ما نسج عليه القدماء اتباعًا لهم، وهو أمر ليس مستغربًا في بيئة تميزت بطبيعها الخلابة وجوّها الجميل، فربّما حرصوا على تصوير الغيث وحبات المطر المتناثرة هنا وهناك، غير آلفين البرق بما يمثله – في الأعم الأغلب – من قوة ورهبة وخوف.

وهم في بعد عن هذا؛ ثم إن هذا الاستغلال كان في معظمه تقليديًّا لا جدَّة فيه أو خروجًا عن مستنِّ الدروب التي ألفها القدماء وساروا عليها، وهو ما يؤكد تعريجهم عليه للأمر عينه، وهو تقليد القدماء، فما رُئِيَ شيء ذو بال من أشعارهم يمكن أن يشكل علامة فارقة، والملحوظ في هذه الأشعار أن صيغة المفرد في البرق هي الغالبة، بل لا نجد سوى شاهدين استعمل فيهما البرق بلفظ الجمع، ولعلَّ هذا نابع من أن البرق بنفسه مثير للخوف والرعب، فكيف إذا استُعْمِل بصيغة الجمع وأُشْعِرَ المتلقي بتآزر البروق لتحدث الأثر الأكبر من هذا الخوف.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل:(501100020595).

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
1. ابن أبي الدنيا، الحافظ الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد البغدادي (281هـ)، كتاب المطر والرعد والبرق والريح، تح: طارق محمد العمودي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، 1997م.
2. ابن الأحمر (807هـ)، أعلام المغرب والأندلس، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة، بيروت، د. ط، 1967م.
3. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (776هـ)، الإحاطة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ.
4. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (776هـ)، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1963م.
5. ابن دريد الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن (321هـ)، كتاب صفات المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع، تح: عز الدين التنوخي، دمشق، 1963م.
6. ابن شاكر، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي السامري (327هـ)، المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، انتقاء: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، تح: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير، دار الفكر، دمشق، د. ط، 1406هـ.
7. الأنصاري، أبو زيد سعيد بن أوس، كتاب المطر، عُني بنشره: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت.
8. الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسني، تاج العروس من جواهر القاموس.
9. ابن فركون، أبو الحسين، مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر، إعداد: محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996م.
10. ابن منظور، الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1300هـ.
11. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم (360هـ)، الدعاء، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ.
12. العسقلاني (852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد حنان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الثانية، 1972م.
13. امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.
14. مقري التلمساني (1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، لبنان، الطبعة الأولى، 1968م.

المجلات والدوريات:

1. داود، لميس عبد العزيز، خطب ابن نباتة الفارقي: البنية التصويرية والإيقاعية، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 36، العدد الرابع، 2020.
2. فروح، أحمد إسماعيل، المشهد المكاني في ديوان لسان الدين بن الخطيب، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 37 – العدد الأول – 2021م.